أ ـ نشأة كلمة صوفي ومتصوف وأصلها

١ ـ كان الاقبال على الدين ، والزهد في الدنيا غالباً على المسلمين في صدر الإسلام . فلم يكونوا في حاجة الى وصف يمتاز به أهل التقى والعكوف على الطاعات والانقطاع الى الله ، ولم يتسم أفاضلهم في الجيل الأول بتسمية سوى صحبة رسول الله ، إذ لا أفضلية فوقها ، فقيل لهم الصحابة ، ولما أدركهم أهل الجيل الثاني سمي من صحب الصحابة بالتابعين .

فلما نشأ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس الى مخالطة المتاع الدنيوى ، قيل للخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد.

ثم ظهرت الفرق الإسلامية فادعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعباداً هنالك انفرد خواص أهل السنة المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ، واشتهر هذا الإسم قبل المائتين من الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين(١)

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون المتوفى ٨٠٨هـ / ١٤٠٥-٦م ، وكشف الظنون لحاجي خليفة المتوفى ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م عند الكلام على التصوف.

ويقول بعض العلماء : إن هذا الاسم معروف فى الملة الإسلامية من قبل ذلك ، بل يذهب بعضهم الى أنه لفظ جاهلى عرفته العرب قبل ظهور الإسلام .

قال ابو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى المتوفى ٣٧٨هـ/٩٨٨م فى كتاب (اللمع فى التصوف): « وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال ، لأنه فى وقت الحسن البصرى [المتوفى ١١٠هـ/٧٢٨م] كان يعرف هذا الإسم ، وكان الحسن قد ادرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفياً فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه ، وقال معى أربع دوانيق فيكفينى ما معى .

وروى عن سفيان الثورى رحمه الله [المتوفى ١٦١هـ/٧٧٧م] أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء [وأبو هاشم الصوفى توفى ١٠٥هـ/٧٢٤م ، وقيل انه أول من سمى بالصوفى] وقد ذكر فى الكتاب الذى جمع أخبار مكة : عن محمد بن اسحاق ابن يسار المتوفى ١٥٠هـ/٧٦٧م وعن غيره يذكر فيه حديثاً : أنه قبل الاسلام قد خلت مكة فى وقت من الاوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجئ من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف ، فإن صح ذلك يدل على أن قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم وكان ينسب اليه اهل الفضل والصلاح والله أعلم »[١]

(١) اللمع فى التصوف طبع ليدن سنة ١٩١٤ ص ٢٢

فاستعمال لفظ صوفي ومتصوف لم ينتشر في الإسلام إلا في القرن الثاني وما بعده. سواء أكان هذا التعبير عن الزاهد بالصوفي حدث في أثناء المائة الثانية، كما هو رأي ابن خلدون المتوفى ٨٠٨هـ / ١٤٠٥-٦م في مقدمته، أم كان هذا التعبير معروفاً في الإسلام قبل القرن الثاني، أم كان لفظاً جاهلياً على ما ذكره صاحب (اللمع) الذي حاول أن يبرئ الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون.

ويقول ابن تيمية المتوفى ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م في رسالة (الصوفية والفقراء): «أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل [المتوفى ٢٤١هـ / ٨٥٥م]، وأبي سليمان الداراني(1) [المتوفى ٢١٥هـ / ٨٤٩م] وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري»(2)

أما الأستاذ لويس ماسينيون (Louis Massignon) فيقول في كتابه (Recueil de Textes Inédits Concernant L'Histoire de la Mystique en Pays D'Islam) المطبوع في باريس سنة ١٩٢٩م عند كلامه على عبدك الصوفي

---

(1) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الزاهد (2) ص ٢ طبع المنار سنة ١٣٤٨هـ

المتوفى حوالى سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م : « صاحب عزلة ببغداد وهو أول من لقب بالصوفى، وكان هذا اللفظ يومئذ يدل على بعض زهاد الشيعة بالكوفة، وعلى رهط من الثائرين بالاسكندرية. وقد يعد فى الزنادقة بسبب امتناعه عن اكل اللحم »[1]

ويريد الاستاذ أول من لقب بالصوفى فى بغداد كما يؤخذ مما نقله فى نفس الكتاب عن الهمذانى ونصه : « ولم يكن السالكون لطريق الله فى الأعصار السالفة والقرون الأُوَل يعرفون باسم الصوفية، وانما الصوفى لفظ اشتهر فى القرن الثالث، وأول من سمى ببغداد بهذا الاسم عبدك الصوفى، وهو من كبار المشايخ وقدمائهم، وكان قبل بشر بن الحارث الحافى [المتوفى ٢٢٧هـ/٨٤١م] والسرى بن المغلس السقطى [المتوفى ٢٥٢هـ/٨٦٧م] ... »[2].

ويقول ماسينيون فى الفصل الذى كتبه فى دائرة المعارف الاسلامية عن كلمة تصوف ما خلاصته : « والتلقيب بالصوفى لفظاً مفرداً ظهر فى التاريخ فى النصف الثانى من القرن الثامن، اذ نعت به جابر بن حيان الكوفى [المتوفى ١٦١هـ/٧٧٧-٧٨] صاحب الكيمياء الذى كان يدعو الى مذهب خاص فى الزهد، وأبو هاشم الصوفى[3].

---

(١) ص ١١ (٢) ص ١١-١٢ (٣) أنظر معجم سركيس

اما كلمة الجمع الصوفية التى ظهرت فى سنة ١٩٩هـ/٨١٤م بمناسبة ثورة صغيرة فى الاسكندرية، فكانت تدل فى ما حوالى ذلك الوقت، على مذهب يكاد يكون شيعياً من مذاهب التصوف الاسلامى، نشأ فى الكوفة، وكان عبدك الصوفى آخر أئمته، وكان عبدك من القائلين بأن الامامة بالتعيين، وكان لا يأكل اللحم، وقد جاء الى بغداد فمات بها سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م، فكلمة صوفى فى مبدأ أمرها كانت قاصرة على الكوفة»(١)

٢ – أما أصل هذا التعبير فالأقاويل فيه كثيرة: فمن مرجح انه لفظ جامد غير مشتق كالقشيرى المتوفى ٤٦٥هـ/١٠٧٢م وقد جاء فى الرسالة مع شرحها لشيخ الاسلام زكريا الأنصارى المتوفى ٩٢٦هـ/١٥١٩م: «وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس بين، ولا اشتقاق كذلك، لأن مصدر (صفا) (صفو) بتأخير حرف العلة عن الفاء، والأظهر فيه أنه غير مشتق بل هو جامد كاللقب»(٢)

ومن قائل انه مشتق من الصفاء أو الصفو، والمراد صفو قلوب أهل التصوف، وانشراح صدورهم ورضاهم بما يجريه الله عليهم، ثم إنهم مع الله فى صفاء لا يشوبه شاغل، وهم بما أطلعهم الله عليه قد صفوا من كدر الجهل قالوا: وكان فى

---

(١)

(٢) هامش نتائج الأفكار القدسية جـ ٤ ص ٤

الاصل صفوى فاستثقل ذلك فقيل صوفى .

ومن قائل ان اللفظ مأخوذ من الصوف لأن لباس الصوف كان يكثر فى الزهاد قال صاحب اللمع: «فلما أضفتهم الى ظاهر اللبسة كان ذلك اسماً مجملاً عاماً، مخبراً عن جميع العلوم والأعمال والاخلاق والاحوال الشريفة المحمودة، الا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام، فنسبهم الى ظاهر اللبسة فقال عز وجل: وإذْ قَالَ الحَوارِيُّونَ .. » الآية، وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى الى ذلك، ولم ينسبهم الى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التى كانوا بها مترسمين، فكذلك الصوفية عندى والله أعلم نسبوا الى ظاهر اللباس، ولم ينسبوا الى نوع من انواع العلوم والأحوال التى هم بها مترسمون، لأن لبس الصوف كان دأب الانبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين»[1] وقيل فى تسمية اصحاب عيسى عليه السلام بالحواريين، لأنهم كانوا قصارين يغسلون الثياب اى يحورونها وهو التبييض .

وقال قائلون: ان الصوفية نسبة الى الصفة التى ينسب اليها كثير من الصحابة، فيقال أهل الصفة، وأهل

(1) ص ٢١

الصفة هم زهاد من مهاجري الصحابة فقراء غرباء، كانوا سبعين ويقلون حيناً ويكثرون، لا مسكن لهم ولا مال ولا ولد، يسكنون صفة المسجد وهو موضع مظلل في مسجد المدينة"

وفي رسالة أهل الصفة لابن تيمية: "أما الصفة التي ينسب إليها أهل الصفة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت في مؤخر مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، في شمال المسجد بالمدينة النبوية، كان يأوي إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه ..

وكثر المهاجرون إلى المدينة من الأغنياء والفقراء، والآهلين والعزاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه، يأوي الى تلك الصفة التي في المسجد، ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد بل منهم من يتأهل أو ينتقل الى مكان آخر يتيسر له، ويجيء ناس بعد ناس، وكانوا تارة يكثرون وتارة يقلون، فتارة يكونون عشرة أو أقل، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارة يكونون ستين وسبعين.

أما جملة من آوى الى الصفة من الصحابة مع تفرقهم فقد قيل كانوا نحو اربعمائة من الصحابة، وقد قيل كانوا أكثر من ذلك ..

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون

عند امكان الاكتساب الذى لا يصدهم عما هو أوجب أو أحب الى الله من الكسب ، واما اذا احصروا فى سبيل الله عن الكسب فكانوا يقدمون ما هو أقرب الى الله ورسوله .

وكان اهل الصفة ضيف الاسلام ، يبعث اليهم النبى صلى الله عليه وسلم بما يكون عنده ، فإن الغالب ما كان عليهم الحاجة لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون اليه من الرزق »(1)

لكن النسبة الى الصفة لا تجئ على الصوفى بل على الصفى .

وثم اقوال ضعيفة أخر كالقول بأن الصوفى نسبة الى الصف الأول ، لأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة والمناجاة وارتفاع الهمة مع الله تعالى والقرب منه ، أو لأنهم كانوا اسرع الناس الى الصف الأول فى المساجد عند الصلاة .

وكالقول بأنهم منسوبون الى صوفة القفا ، أى ما يتدلى فى نقرة القفا من شعر يرسلونه متلبداً مشعثاً كالصوف ، وفى الأساس «صوفة قفاه زغباته وقيل الشعر السائل من الرأس» أو منسوبون الى صوفة بن مروان بن أُدّ بن طابخة هكذا جاء فى كتاب جلاء العينين والذى فى القاموس وشرحه

(1) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية جـ1 ص 26 – 30

واللسان : ﴿ وصوفة الوصى من مضر وهو الغوث بن مر
ابن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مضر كانوا يخدمون الكعبة
في الجاهلية، ويجيزون الحاج اي يفيضون بهم ، وكانت العرب
اذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى يدفع بها صوفة .
وسمي الغوث بصوفة لأن أمه جعلت في رأسه صوفة،
وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها، وقيل صوفة اسم لقبيلة ،
اجتمعت من افناء القبائل، تجمعوا فتشبكوا كتشبك الصوفة ﴾
وفي رسالة الصوفية والفقراء لابن تيمية : ﴿ وتنازعوا في
المعنى الذي اضيف اليه الصوفي، فانه من اسماء النسب كالقرشي
والمدني وامثال ذلك، فقيل انه نسبة الى أهل الصفة وهو
غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صفي ، وقيل نسبة الى الصف
المقدم بين يدي الله وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل
صفي ، وقيل نسبة الى الصفوة من خلق الله وهو غلط ،
لأنه لو كان كذلك لقيل صفوي ، وقيل نسبة الى صوفة
ابن بشر بن أُدّ بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون
بمكة من الزمن القديم، ينسب اليهم النساك، وهذا وان
كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، فانه ضعيف أيضاً لأن
هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند اكثر النساك، ولأنه
لو نسب النساك الى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة

والتابعين وتابعيهم أولى، ولكن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام.

وقيل وهو المعروف أنه نسبة إلى لبس الصوف، فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك، ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية»[1]

وفي كتاب قواعد التصوف لأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بزروق ما نصه: «وقد كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف وأمس ذلك بالحقيقة خمسة:

الأول: قول من قال من الصوفة لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له.

الثاني: أنه من صوفة القفا للينها فالصوفي هين لين.

الثالث: أنه من الصفة إذ جملته اتصاف المحاسن وترك الأوصاف المذمومة.

الرابع: أنه من الصفاء، وصحح هذا القول حتى قال فيه أبو الفتح البستي رحمه الله المتوفى ٤٠٠ / ١٠٠٩-١٠ أو ٤٠١هـ / ١٠١٠-١١م

---

(١) ص ٣-٤

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفا فصوفي حتى سمي الصوفي

الخامس - إنه منقول من الصفة، لأن صاحبه تابع لأصحابها فيما اثبت الله لهم من الوصف حيث قال تعالى (يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وهذا هو الأصل الذي يرجع اليه كل قول فيه والله اعلم »[1]

قال الاستاذ ماسينيون في دائرة المعارف الاسلامية عن أصل كلمة تصوف: « أصل الكلمة تصوف مصدر للفعل الخماسي المصوغ من صوف، للدلالة على عادة لبس الصوف أو على التجرد لحياة الصوفية، المسمى سالكا في الاسلام صوفيا.

وينبغي رفض ما عدا ذلك من الأقوال التي قيلت منذ زمن ليس ببعيد في أصل كلمة صوفي، مثل القول بأن أصلها أهل الصفة - وهم قوم متنسكون كانوا يجلسون فوق دكة المسجد (Sur la Banquette) في المدينة لعهد النبي - أو أنها من الصف الأول من صفوف المصلين في الصلاة، أو من بني صوفة - وهي قبيلة بدوية - أو من الصوفان[2] وهو نوع من النبات، أو من صوفة القفا للشعر الذي ينبت عليه، أو من صوفي مطاوع صافى المبني للمجهول.

---

(1) ص ٤ - ٥ طبع مطبعة الحاصد بمصر (2) في القاموس والصوفانة بالضم بقلة زغباء قصيرة.

ومنذ القرن الثامن للتاريخ الميلادي استعمل هذا اللفظ المطاوع للتورية مع كلمة صوفي بمعنى المتنسك لابس الصوف، ومع كلمة صوفي اليونانية التي حاولوا فيها الحال بالمعادلة بين ثيوصوفيا وتصوف.

وقد رد نولدكه هذا المذهب الأخير في أصل كلمة صوفي مبيناً أن السين اليونانية تكتب بالمراد في العربية سيناً لا صاداً، وان ليس في اللغة الآرامية كلمة متوسطة للإنتقال من سوفي اليونانية الى صوفي »

وارجح الأقوال وأقربها الى العقل: مذهب القائلين بأن الصوفي نسبة الى الصوف، وان التصوف مأخوذ منه أيضاً، فيقال تصوف اذا لبس الصوف كما يقال تقمص اذا لبس القميص، فلهذا القول وجه سائغ في الاشتقاق، وهو مختار كبار العلماء من الصوفية مثل صاحب اللمع، وشارح الرسالة القشيرية، ومن غيرهم كابن خلدون، وابن تيمية. وجمهرة الصوفية، يميلون الى رد اسمهم الى الصفاء، وان لم يكن لذلك وجه ظاهر في قواعد اللغة.

ب – أساس التصوف وما مر به من الأدوار

أطلق لفظ الصوفي والمتصوف بادئ الأمر مرادفاً للزاهد والعابد والفقير، ولم يكن لهذه الالفاظ معنى يزيد على شدة العناية بأمر الدين ومراعاة احكام الشريعة فإن الفقر والزهد ولبس الصوف مظهر ذلك.

وفي رسالة القشيري عن ابي حمزة البغدادي: «علامة الصوفي الصادق ان يفتقر بعد الغنى ويذل بعد العزة، ويخفى بعد الشهرة»(1)

وكانت أحكام الشريعة تتلقى من صدور الرجال، لا فرق بين عباداتها ومعاملاتها وعقائدها، ثم تحدث الناس في الامور الدينية على نظام علمي، ونشأ التدوين فكان أول ما توجهت اليه الهمم، وانصرفت اليه الأفكار، علم الشريعة بمعنى الاحكام العملية، حتى حسب الناس ان الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو غاية الدين.

هنالك تطور معنى التصوف الى ما يناسب الكمال في الدين الذي وضع له اللفظ أولاً، وادى هذا التطور الى نشأة علم ديني الى جانب العلم الفقهي.

وفي مختصر جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر يوسف

(1) هامش نتائج الافكار القدسية جـ ٤ ص ٥

ابن عبد البر النمري القرطبي المتوفى ٤٦٢هـ/١٠٧٠-١٠٧١م : « .. وقال سفيان [المتوفى ١٦١هـ/٧٧٧م] كتب ابن منبه [المتوفى ١١٤هـ/٧٣٢م] الى مكحول [المتوفى ١١٢هـ/٧٣١م]: انك امرؤ قد اصبت فيما ظهر من علم الاسلام شرفاً فاطلب بما بطن من علم الاسلام عند الله محبة وزلفى واعلم أن احدى المحبتين سوف تمنع منك الأخرى »(١)

وقد ذكر ابن تيمية في رسالة الصوفية والفقراء، أن الامور الصوفية التي فيها زيادة في العبادة والاحوال خرجت من البصرة، وافترق الناس في امر هؤلاء الذين زادوا في احوال الزهد والورع والعبادة على ما عرف من حال الصحابة، فقوم يذمونهم وينتقصونهم، وقوم يجعلون هذا الطريق من اكمل الطرق وأعلاها، والتحقيق أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والامارة ونحو ذلك.(١) وزاد ابن تيمية هذا الرأى بياناً فقال: « واذا عرفت أن منشأ التصوف كان من البصرة، وانه كان فيها من يسلك من طريق العبادة والزهد ما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا الى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف فقيل في أحدهم صوفي وليس طريقهم

---

(١) انظر ص ١٣-١٤

(١)

مقيداً بلباس الصوف، ولا هم اوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به لكن اضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال »(1)

وكلام ابن تيمية يشير الى ما بين التصوف والفقه من الصلة.

انقسم علم الشريعة الى قسمين: علم يدل ويدعو الى الاعمال الظاهرة، التي تجرى على الجوارح والاعضاء الجسمية، وهى العبادات كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم إلى آخره واحكام المعاملات كالحدود والزواج والطلاق والعتق والبيوع والفرائض والقصاص، وسمى هذا العلم علم الفقه، وهو مخصوص بالفقهاء واهل الفتيا فى العبادات والمعاملات

والثانى علم يدل على الاعمال الباطنية ويدعو اليها، والاعمال الباطنية هى اعمال القلوب، وسمى هذا العلم الثانى علم التصوف، وسمى المتصوفون أنفسهم ارباب الحقائق وأهل الباطن، وسموا من عداهم أهل ظواهر وأهل رسوم.

واهل الرسوم طائفتان القراء والفقهاء فالقراء هم أهل النسك والتعبد سواء اكانوا يقرأون القرآن ام لا، وهمتهم مقصورة على ظاهر العبادة دون أرواح المعارف وأعمال القلوب. والفقهاء هم المشتغلون بالفتيا وعلوم الشريعة، وهؤلاء

---

(1) ص ١٧

وهؤلاء عند الصوفية أهل رسوم، ففريق مع رسوم العلم، وفريق مع رسوم العبادة.

والتصوف في هذا الدور عبارة عن الاخلاق الدينية ومعاني العبادة، قال ابن القيم المتوفى ٧٥٦هـ/١٣٥٥م في مدارج السالكين: «واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم ان التصوف هو الخلق» وقال في موضع آخر: «ان هذا العلم مبني على الارادة فهي اساسه ومجمع بنائه وهو يشتمل على تفاصيل احكام الارادة وهي حركة القلب ولهذا سمي علم الباطن كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل احكام الجوارح ولهذا سمي علم الظاهر» وبذلك يتبين ان اولى خطوات التصوف في سبيل التكون العلمي كانت عبارة عن نشأة علم الأخلاق الاسلامي.

وهذا التدرج في معنى التصوف طبيعي بسيط لا تبدو فيه دلائل تأثير خارج عن العبادات الاسلامية، وجهود المفكرين في فهم معانيها وآثارها الروحية واتصالها بالقلوب.

ثم اتسعت انظار الباحثين في العلوم الدينية، ودقت، وترامت هممهم الى الكلام في اصول الدين بعقولهم، ولطفت اذواق المراقبين منهم لمعاني العبادات وحركات القلوب، فأخذ التصوف يتسامى الى نظرية خاصة في المعرفة وسبيل الوصول اليها، وهذه النظرية على ما بينه الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ/١١١١م في

كتاب احياء علوم الدين هي: ان السعادة التي وعد الله بها المتقين هي المعرفة والتوحيد والمعرفة هي معرفة الحضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات اذ ليس في الوجود شئ سوى الله تعالى وافعاله والكون كله من أفعاله

فما يتجلى من ذلك للقلب هو الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق وتكون سعة نصيب الانسان من الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما يتجلى له من الله وصفاته وافعاله

وانما مراد الطاعات كلها واعمال الجوارح تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه

وهذه المعرفة تحصل للانسان من وجهين: أحدهما - طريق الاستدلال والتعلم ويسمى اعتباراً واستبصاراً ، ويختص به العلماء والحكماء . والثاني: ما لا يكون بطريق التعلم ولا الاستدلال ولكنه يهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى

وهو ينقسم الى ما لا يدرى العبد كيف حصل له ومن أين حصل والى ما يطلع معه على السبب الذى استفاد منه ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب على أنه في الحالين بوثوق بأن العلم جاءه من الله والعلم في الحالين بواسطة الملك

فان العلم انما يحصل فى قلوبنا بواسطة الملك
والأول يسمى الهاماً ونفثاً فى الروع ويختص به الاولياء
والثانى يسمى وحياً ويختص به الانبياء
واهل التصوف يؤثرون العلوم الإلهامية دون التعليمية
ويعدونها المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية التى يستحيل
معها امكان الخطأ

ولذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنف المصنفون
والبحث عن الاقاويل والادلة بل قالوا ان الطريق الى تحصيل
تلك الدرجة بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ،
وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى .....
فطريق الصوفية يرجع الى تطهير محض وتصفية وجلاء ،
ومحاسبة للنفس ثم استعداد وانتظار للتجلى

والمريد فى مجاهدته وعباداته لابد أن تنشأ له عن كل مجاهدة
حالة نفسية نتيجة لتلك المجاهدة واصل المجاهدات كلها الطاعة
والاخلاص ، ويتقدمها الايمان ويصاحبها ، وتنشأ عنها الاحوال
والصفات نتائج وثمرات ، ثم تنشأ عنها اخرى واخرى الى مقام
التوحيد والعرفان ، ولابد للمريد من الترقى فى هذه الأطوار
النفسية المسماة بلسان أهل التصوف المقامات أو المنازل ،
والاحوال ، وللصوفيين اختلاف كثير فى عدد المقامات وترتيبها

كل يصف منازل سيره وحال سلوكه ، ولهم اختلاف في بعض منازل السير هل هي من قسم المقامات أو من قسم الاحوال ؟ كما اختلفوا في الرضا هل هو مقام أو حال بل إنهم يختلفون في الفرق بين المقام والحال

فالمقام بفتح الميم هو في الأصل موضع القيام ، وبضمها موضع الاقامة وقد يكون كل منهما بمعنى الاقامة وبمعنى القيام ، والمقام بالفتح والضم ما يتحقق به المريد من الصفات المكتسبة بالرياضة والعبادة كمقام الخوف من الله ، الذي يحصل بترك الكبائر فالصغائر فالمكروهات فالشبه فالتوسع في الحلال الى ان ينتهي الى ترك كل ما يشغل عن الله . والحال معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب كالطرب والحزن والشوق والهيبة . فالاحوال مواهب ، والمقامات مكاسب بمواهب لكونها اغاشال بالكسب مع الموهبة والعبد بالاحوال يترقى في المقامات ولا يلوح له حال من مقام اعلا من مقامه الا وقد قرب ترقيه اليه ، وليس للمريد ان يتشوف الى مقام فوق مقامه مالم يستوف احكام ذلك المقام واحواله)

ومنهم من يقول : الاحوال من نتائج المقامات والمقامات نتائج الأعمال ، فكل من كان اصلح عملاً كان اعلا مقاماً ، وكل من كان اعلا مقاماً كان اعظم حالاً ويقول صاحب اللمع :

ان معنى المقام، مقام العبد فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع الى الله عز وجل . اما معنى الاحوال فهو ما يحل بالقلوب او تحل به القلوب وليس الحال من طريق المجاهدات والرياضات كالمقامات .

اما ابن القيم المتوفى ٧٥٦هـ/١٣٥٥م فيقول فى كتاب مدارج السالكين : ((والصحيح ان هذه الواردات والمنازل ، لها اسماء باعتبار أحوالها فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبدوها كما يلمع البارق ويلوح على بعد ، فاذا نازله وباشرها فهى احوال ، فاذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهى مقامات ، وهى لوامع ولوائح فى أولها ، واحوال فى أوسطها ومقامات فى نهاياتها ، فالذى كان بارقاً هو بعينه الحال والذى كان حالاً هو بعينه المقام وهذه الاسماء له باعتبار تعلقه بالقلب وظهوره له وثباته فيه))

ويذكر ابن تيمية فى رسالة الصوفية والفقراء ، تعاريف للصوفى ينطبق بعضها على ما نحن بصدده من هذا الدور الثانى من ادوار التصوف فيقول : ((ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة وقد تكلموا فى حدوده وسيرته واخلاقه ، كقول بعضهم : الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر))(1)

(1) ص ١٨

كان التصوف طريقاً من طرق العبادة يتناول الأحكام الشرعية من ناحية معاييرها الروحية وآثارها فى القلوب فهو يقابل علم الفقه الذى يتناول ظواهر تلك العبادات ورسومها ثم انتقل التصوف فاصبح طريقاً للمعرفة يقابل طريق أرباب النظر من المتكلمين

قال الغزالى فى الاحياء : « ان للايمان والمعرفة ثلاث مراتب المرتبة الاولى ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض، والثانية ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام . والثالثة ايمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين »

وكما أن الصوفية خصوم الفقهاء فى الدور الأول، اصبحوا خصوم المتكلمين أهل النظر فى هذا الدور

ولعل علم التصوف انما صار علماً مدوناً فى هذا الدور ، وصار موضوعه مايوصل الى درجة العرفان من انواع المجاهدات وما ينشأ عنها من الاذواق والمواجد التى هى المقامات والأحوال وقد جدت للقوم عبارات يدلون بها على ما اكتشفوا من دقائق المعانى فضمنوا علمهم أيضاً شرح هذه الاصطلاحات ، وكثرت اسماء هذا العلم فسمى علم القلوب ، وعلم الاسرار ، وعلم المعارف ، وعلم الباطن وعلم الأحوال والمقامات ، وعلم السلوك

وعلم الطريقة ، وعلم المكاشفة:

وإذا كان غير منكور ان التصوف في هذا الدور لم يخل من تأثر ببعض ما وصل الى المسلمين من معارف الامم القديمة فإنا لا نزال نجد الصبغة الاسلامية غالبة عليه في هذا العلم الوليد. ولا نستطيع ان نقول مع جولدزيهر «وكذلك يجب عند النظر في التصوف نظرة تاريخية تقدير النصيب الهندي الذي ساهم في تكوين هذه الطريقة الدينية المتولدة من المذهب الافلاطوني الجديد»

ثم انصرفت عناية قوم من المتأخرين لكشف حجاب الحس الذي هو نهاية مراتب الصوفية ، وما وراء ذلك من المدارك والمعارف ، واختلفت طرقهم في الرياضة والمجاهدة واماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالعبادات والذكر وتعرضوا للكلام في حقائق الموجودات العلوية والسفلية على وجه لا يفهمه من لم يشاركهم في اذواقهم ومواجدهم ثم قالوا: ان اهل المجاهدة يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية ، وتصير طوع ارادتهم وتوغلوا في ذلك كله متأثرين بمذاهب الإسماعيلية واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين وهو بعينه ما تقوله الرافضة

وبلغ تأثرهم بهذه المذاهب المفرطة من مذاهب الشيع أنهم لما أرادوا ان يجعلوا الباس خرقة التصوف اصلاً لطريقتهم رفعوه الى على رضى الله عنه . ثم يقول ابن خلدون: «ولم يختص على من بين الصحابة بطريقة في لباس ولا حال»(١)

هنالك حدث تطور جديد فى موضوع علم التصوف فاصبحت كتب القوم تتناول اربعة أبحاث:

١ - المجاهدات وما يحصل عنها من الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاحوال ويترقى منها الى غيرها.

٢ - الكلام فى الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسى والملائكة والروح وحقائق كل موجود غائب اوشاهد وترتيب الأكوان فى صدورها عن موجدها

٣ - التصرفات فى العوالم والاكوان بانواع الكرامات

٤ - الفاظ موهمة الظاهر صدرت من كثير من أئمة القوم يعبرون عنها فى اصطلاحهم بالشطحات والشطح لفظة مأخوذة من الحركة يقال: شطح يشطح اذا تحرك وهو عبارة مستغربة فى وصف وجد فاض بقوته وهاج لشدة غليانه وغلبته ، فهى حركة اسرار الواجدين اذا قوى وجدهم فعبروا عن وجدهم بعبارات يستغرب سامعها ومن ذلك مايروى عن أبى يزيد

(١) ص ٢٢٠ - ٢٢١ من المقدمة طبع دار الطباعة سنة ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م

البسطامي المتوفى ٢٦١هـ/٨٧٥م أنه قال: رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي: يا ابا يزيد ان خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زيني بوحدانيتك، والبسني انانيتك وارفعني الى احديتك حتى اذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون انا هناك

وحكى ايضا عنه انه قال: اول ما صرت الى وحدانيته، فصرت طيراً جسمه من الاحدية وجناحاه من الديمومة فلم أزل اطير في هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت الى هواء مثل ذلك مائة الف الف مرة فلم أزل أطير الى ان صرت في ميدان الازلية فرأيت فيها شجرة الاحدية ثم وصف أرضها وفرعها وأغصانها وثمارها ثم قال فنظرت فعلمت أن هذا كله خدعة.

ولابن عربي المتوفى ٦٣٨هـ/١٢٤٠-١٢٤١م

عقد الخلائق في الإله عقائداً وانا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

والغلاة من متأخرى المتصوفة المتكلمين بالمواجد، خلطوا مسائل الكلام والفلسفة الإلهية بفنهم مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول ووحدة الوجود

ولما كانت حكمة الإشراق أو الحكمة الذوقية هي من الفلسفة بمنزلة التصوف من العلوم الإسلامية وكان السالكون طريقة

الرياضة والمجاهدة لمعرفة المبدأ والمعاد ان وافقوا فى رياضتهم احكام الشرع فهم الصوفية والا فهم الحكماء الاشراقيون

لما كان الأمر كذلك فقد سهل التداني بين التصوف والفلسفة وتفتحت له الابواب فى هذا الدور

والمتأمل فى هذه الادوار التى تداولت التصوف يلاحظ أن اللفظ استحدث أول الأمر للعبارة عن معنى الكمال الدينى بالتمسك بالشرع والزهد فى الدنيا حينما اخذ الناس فى مخالطة الزخارف الدنيوية وكاد يطغى حب المال على ما غرس الدين فى النفوس من الورع فكان الصوفى مخالفاً للجماهير بفقره وورعه على حين يخشى المال غيره ويطمع فى الغنى

ثم حدثت العلوم الدينية فاقبل الناس على الفقه يتنافسون فى تدارسه وفى العمل باحكامه فاصبح الكمال الدينى الذى يعبر عنه التصوف شيئاً وراء ما يدعو اليه الفقهاء ويصرفون اليه جهودهم هو صفاء القلب وتأثره بالعبادة وحسن الخلق

قال الكتانى : التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء

وقالوا : علم السلوك هو معرفة النفس ما لها وما عليها من الوجدانيات ويسمى بعلم الأخلاق وعلم التصوف والوجدانيات هى الاخلاق الباطنة والملكات النفسية .

ولما نشأ البحث في العقائد والتماس الايمان من طريق النظر أو النصوص المقدسة وتوجهت همم المسلمين الى التماس المعرفة على اساليب المتكلمين اصبح الكمال الديني التماس الايمان والمعرفة من طريق التصفية والمكاشفة: واصبح التصوف عبارة عن بيان هذه الطريق وسلوكها

وقد قالوا: ان علم المكاشفة المسمى بعلم الباطن وهو التصوف عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف بذلك النور امور كثيرة، وتحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وصفاته الباقيات وبافعاله وحكمته في خلق الدنيا والآخرة

وشاعت بعد ذلك تأويل الفلاسفة والمتكلمين في الصانع وصدور الموجودات عنه وما الى ذلك من عوالم الأرواح وشئون الآخرة فتكلم الصوفية في كل ذلك على منهجهم الذي لا يعتمد على نظر ولا على نص ولا يعرفه الا من ذاق ما ذاقوا وهم يرون ما تكلموا به هو اليقين الذي لا يقبل شكاً ولا يلحقه بطلان ولا يدركه الا من بلغ رتبة العرفان

سئل ابن الجلاء ما معنى قولهم صوفي؟ فقال ليس نعرفه في شرط العلم ولكن نعرف أن من كان فقيراً مجرداً من الاسباب وكان مع الله بلا مكان ولا يمنعه الحق سبحانه

عن علمه كل مكان

قال ابن خفيف المتوفى ٣٧١هـ / ٩٨٢م سألت رويم ابن محمد (1) عن التصوف فقال: يابنى: التصوف افناء الناسوتية، وظهور اللاهوتية فقلت زدنى رحمك الله: فقال: لا رضى الله إن كان فى ذلك مزيد.

فالتصوف نشأ معبراً عن المثل الدينى الاعلى، وظل فى ادواره كلها يعبر عن ذلك المثل مخالفاً ما عليه العامة مخالفاً القراء والفقهاء واهل السنة والمتكلمين والمتفلسفين متعرضاً لعداواتهم واضطهاداتهم من غير ان تخرجه العداوات والاضطهادات عن حدود الحب والتسامح.

فالتصوف كان وحده من بين مختلف المذاهب تسامحاً صرفاً وسلاماً فى كل ما مر به من الأدوار

والصوفى كما قال ابو تراب النخشبى: لا يكدره شئ ويصفو به كل شئ

وقد انتدب للرد على المتأخرين من الصوفية فيما اشرنا اليه من مقالاتهم كثير من الفقهاء وغيرهم واشتدوا فى النقد حتى شملوا بالنكير كل ما وقع للمتصوفة فى طريقتهم، واكثر ما تناوله الاخذ والرد بين الباحثين هو موضوع الكرامات للأولياء

نحوه أن نعرض للولاية وصلتها بالتصوف ثم نتكلم في كرامات الاولياء

ولابد ان نصرح قبل ذلك بأننا أهملنا عن عمد دور الانحطاط الذى انتهى اليه التصوف في عهوده المتأخرة وهو الدور الذى لانزال نشهده والذى جعل من طريقة الاخلاص والزهد والعرفان والخير اداة غش ومطامع وجهل وفساد.

من الدروس التى كان يلقيها في كلية الآداب بالجامعة المصرية "جامعة فؤاد الأول" الأستاذ الشيخ مصطفى بك عبد الرازق